مؤكد أن قضية الحفاظ على «سواد» القارة الأفريقية - بمعنى تحريرها من بقايا الاستعمار وإبقائها خارج دائرة الصراع بين الغرب الأبيض والشرق الأحمر - هى أخطر ما يشغل بال الأفارقة فى هذه الآونة.

● فى سبها بليبيا تشابكت الايدى، وكانت بداية التسلط الكبرى. والاستشارات فى اتجاه واحد من كاسترو إلى القذافى.

الأفريقيون يفضلونها سوداء

عبدالعظيم حماد

●● والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على كل باحث فى القضايا الأفريقية هو: لماذا اتجه الصراع الدولى - وبهذه القوة - إلى أفريقيا، رغم أننا نعيش فى عصر الوفاق كما يقولون؟ ولماذا كان السوفيت هم الذين بدأوا - ونجحوا - فى شق المجرى الأفريقى أمام تدفق تيارات الصراع الدولى؟..

أما لماذا بدأ السوفيت ونجحوا فى أخذ زمام المبادرة على الساحة الأفريقية، فلعل جزءا من الإجابة يكمن فيما اتضح الآن من أن التدخل فى أفريقيا أثناء أزمة الكنغو سنة ١٩٦١ كان واحدا من الأسباب الرئيسية للاطاحة بخروشوف سنة ١٩٦٤..

ولعل فى الإعلان الذى نشرته صحيفة التايمز البريطانية موجها إلى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر قبل شهرين من الآن جزءا آخر من الإجابة. فقد تضمن هذا الإعلان الذى نشرته التايمز على صفحة كاملة تحذيرا للغرب بأن تزايد الوجود السوفيتى فى أفريقيا، وفى نصفها الجنوبى على وجه الخصوص هو أخر حلقة فى سلسلة المحاولات السوفيتية لفصل «العالم الحر» عن مصادر قوته الاقتصادية فيما وراء البحار، وذلك عن طريق السيطرة على طرق الملاحة الغربية الرئيسية، أو على الأقل تهديدها.

لا وفاق فى أفريقيا

●● وأما لماذا اتجه الصراع الدولى إلى أفريقيا رغم الوفاق؟ فالإجابة هنا تتكون من شقين:

الأول:

هو أن الوفاق الدولى الذى شمل أوروبا، وجنوب شرق آسيا وأريد فرضه على الشرق الأوسط، لم يشمل أفريقيا، وربما كان السبب فى ذلك هو هدوء الساحة الأفريقية. حين بدأ الحديث عن سياسة الوفاق.

أما الشق الثانى من الإجابة:

فيتعلق بأفريقيا ذاتها، وبالدور الذى يمكن أن تلعبه فى مستقبل العالم، فالمعروف أن هناك ثلاث مشكلات رئيسية حادة ستواجه العالم كله فى المستقبل القريب، هذه المشكلات التى تجمعت نذرها بالفعل هى:

- مشكلة الغذاء العالمى
- ومشكلة الانفجار السكانى
- ومشكلة الطاقة.

وأن من يسيطر على أفريقيا سيملك فى يديه بمفاتيح تلك الأزمات الثلاث لأن أفريقيا أولا منطقة فراغ سكانى، وهى ثانيا تحتوى على إمكانيات زراعية، وموارد غذائية طبيعية هائلة بكل ما توحى به كلمة هائلة من معان. ثم إن أفريقيا أخيرا تستطيع أن تلعب دورا حاسما فى أزمة الطاقة. لأنها من ناحية تخفى فى باطنها كميات كبيرة من البترول والكوبالت واليورانيوم المشع. وهذا العنصر الأخير هو صاحب الدور الرئيسى فى توليد الطاقة النووية. ومن الناحية الأخرى - وكما رأينا فى تحذير الصحيفة البريطانية - فإن من يسيطر على أفريقيا، يستطيع التحكم فى طرق الملاحة التى تتشل عبرها إمدادات البترول إلى العالم الصناعى، سواء عن طريق البحر الأحمر، أو عن طريق رأس الرجاء الصالح.

والحقيقة أن الأطراف الرئيسية فى اللعبة الدولية قد أدركت مبكرا أهمية القارة الأفريقية، وما كان زحف أساطيل الدولتين الكبيرتين المتصل طوال العامين الأخيرين إلى مياه المحيط الهندى، إلا أحد مظاهر ذلك الإدراك.

وصحيح أن الولايات المتحدة بادرت بانشاء قاعدة عسكرية فى جزيرة دييجوجارشيا سنة ١٩٧٥ فى المحيط الهندى على مقربة من السواحل الأفريقية، إلا أن السوفيت كانوا قد نجحوا فى الحصول على مواقع قوية داخل الساحة الأفريقية نفسها، وراحوا دون إبطاء يحصلون على المزيد.

وكما هو الحال فى جميع السوابق، كانت أخطاء الغرب، وتأييد السوفيت لحركات التحرر الوطنى الأفريقية، هى حصان طروادة السوفيتى إلى القارة السوداء.

ويمكن القول بأن الدول الغربية قد أهملت أفريقيا تماما، منذ سحق ثورة لومومبا فى الكنغو سنة ١٩٦١، وبينما راح السوفيت يعبدون حساباتهم فى أفريقيا، ألقى الأمريكيون بكل ثقلهم فى جنوب شرقى آسيا، وعن عمد وسبق إصرار تجاهل الغرب كله كفاح الأفارقة ضد شعار ورحشية الاستعمار البرتغالى فى أنجولا وموزمبيق وغينيا بيساو، وضد القهر العنصرى فى روديسيا وناميبيا، وجنوب أفريقيا.

وإذا كان الغرب هو واضع قاعدة التعاون مع الشيطان ضد العدو، فلم يكن أمام الأفارقة إلا السلاح السوفيتى للتصدى لوحشية سالازار ديكتاتور البرتغال الراحل وتلاميذه وحلفائه، وخصوصا أن الأسلحة التى كانت تذبحهم فى الأصل أسلحة غربية، وربما كان ذلك هو أحد أسباب تغلب الاتجاهات اليسارية لدى حركات التحرير الوطنى فى المستعمرات الأفريقية.

وإذن فقد كان سقوط الحكم الديكتاتورى فى لشبونة فى أبريل سنة ١٩٧٤ وما تبعه من التسليم بحق الاستقلال للمستعمرات البرتغالية فى أفريقيا، هو بداية فتح الساحة الأفريقية على مصراعيها أمام الصراع الدولى الذى ملك فيه السوفيت زمام المبادرة، تماما كما كان هذا السقوط هو بداية نهاية عصر الرجل الأبيض فى أفريقيا.

وكان الصراع الدولى - كما نتذكر - قد بدأ أول جولاته الساخنة فى أنجولا، وهنا أيضا ألقى السوفيت بكل ثقلهم وراء الجبهة الشعبية بزعامة أوجستينو نيتو رئيس أنجولا الحال، وانتدبوا الكوبيين للقيام بالدور المباشر، مبتدئين بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين القوى الكبرى، أبرز خصائصها العمل من وراء الحلفاء «الصغار».

وكان من المنطق بعد تأييد الغرب المتردد

● وفى أفريقيا أكثر من انتفاضة شعبية كبيرة وكلها ترفض أن تكون فى فلك أية دولة كبرى.

لجيبوتى نيتو، وقبل ذلك حصول كل من موزمبيق وغينيا بيساو على استقلالهما أن تكون موسكو هى محط أنظار القادة الجدد فى تلك الدول.

ولم يكن أمام الغرب حينئذ إلا الحديث عن التسهيلات البحرية التى حصل عليها الاتحاد السوفيتى فى موانئ موزمبيق وفى الموانئ الأنجولية، وعن انتشار الوجود العسكرى الكوبى من وراء النفوذ السوفيتى فى مناطق أخرى من القارة السوداء، حتى اندلعت الحرب فى زائير.

●● وعند هذا الحد لا بد أن نتساءل عن أسباب تردد الغرب والولايات المتحدة بالذات فى الدخول فى مواجهة حاسمة مع السوفيت فى أفريقيا؟

الأسباب التى ذكرت عديدة منها الانشغال فى نقمبة وترجيت ثم انتخابات الرئاسة، والخوف من حدوث فيتنام أخرى فى أفريقيا، وأخيرا بقال إنه كان هناك اتفاق ضمنى بين موسكو وواشنطن على أن يترك السوفيت البرتغال للأمريكيين، بينما يترك الأمريكيون أنجولا للسوفيت.

وأيا كان نصيب هذه الأسباب من الصحة فإن الذى نتذكره جيدا أن أفريقيا شغلت الإدارة الأمريكية السابقة فى أواخر أيامها، وكان فرار الكونجرس برفض التدخل العسكرى فى أنجولا هو المسئول عن شل هذه الإدارة فى مواجهة السوفيت، كما أن الإدارة الجديدة فى واشنطن برئاسة كارتر بدأت تولى الساحة الأفريقية اهتماما خاصا.

القرن الأفريقى

ولا يقتصر الوجود السوفيتى فى أفريقيا على نصفها الجنوبى، ولكن ربما كانت البداية العلنية لهذا النفوذ فى منطقة القرن الأفريقى أسبق وبالتحديد كانت هذه البداية فى الصومال بعد الانقلاب العسكرى اليسارى هناك. وباسم المبادىء امتدت الجسور على الفور بين موسكو ومقديشيو، لدرجة أن نصيبة ما إذا كان السوفيت حصلوا على قاعدة عسكرية فى ميناء بربرة الصومالى أم لا. قد ظلت الشاغل الأول لأجهزة الإعلام الغربية عدة شهور قبل عامين من الآن.

إلا أن مجىء الكولونيل الشيوعى مانجستو إلى قمة السلطة فى أديس أبابا، قلب الأدوار - على ما يبدو - فى القرن الأفريقى. فاحتلت أثيوبيا مكان الصومال فى الاستراتيجية السوفيتية، وبدأت العلاقات السوفيتية الصومالية تفتر. لأن الصوماليين كانوا يريدون من موسكو مساندتهم فى استرداد ما اغتصبه امبراطور أثيوبيا السابق هيلاسلاسى من أراضيهم.

ويسعى السوفيت الآن وبإلحاح لإنهاء الضعف الذى لحق بمركزهم فى القرن الأفريقى من جراء النزاع الصومالى الأثيوبى. أما الأسلوب الذى ابتكروه فهو تكوين جبهة من أصدقائهم فى أفريقيا ضد الاستعمار والعنصرية يقوم فى داخلها نوع من العلاقات الوحدوية بين الصومال وأثيوبيا.

وكان ذلك هو الهدف الذى سعى إليه كل من فيديل كاسترو رئيس كوبا ومن بعده الرئيس السوفيتى السابق بود جورنى خلال جولاتهما الأخيرة فى القارة الأفريقية. وقد عبر كاسترو عن ذلك بوضوح حين قال إن جولته تستهدف إقناع الدول الأفريقية التى زارها - وهى ليبيا وأثيوبيا والصومال وتانزانيا وموزمبيق وأنجولا - بمبدأ «التحالف الأممى ضد الإمبريالية البيضاء».

ورغم أننا لا نعرف على وجه اليقين ما هى ردود فعل تلك الدول لمبدأ كاسترو فإننا نستطيع أن نؤكد أن أثيوبيا مانجستو هى أكثر الدول تحمسا له. وتدل الملابسات على أن الصومال وتانزانيا قد استقبلتا الاقتراح السوفيتى الكوبى بفتور.

ويقال إن الرئيس التانزانى نيريرى قال لكاسترو ولبود جورنى:

إنه يشعر أن الأفريقيين يريدون تسوية مشكلاتهم فى النطاق الأفريقى. لأن تدخل أى طرف خارجى فيها، سيدفع الأطراف الخارجية الأخرى إلى التدخل، ومن ثم تصبح أفريقيا جلبة لا ستعراض عضلات الدول الكبرى وتضيع قضية التحرير والتنمية فى تلك الدوامة.

● من يكسب؟

وأيا كان مصير «التحالف الأممى ضد الإمبريالية البيضاء» فى أفريقيا فإن القضية العاجلة الآن، والتى ستحدد من يكسب الرهان فى أفريقيا هى قضية الحكم العنصرى فى روديسيا وناميبيا. وحول هذه القضية يدور تنافس محموم بين الشرق والغرب، فالاتحاد السوفيتى يتبنى الحل العسكرى. ويبدى استعداده التام لمد ثوار زيمبابوى وناميبيا بكل ما يلزمهم من سلاح وخبرة عبر موزمبيق وتانزانيا وأنجولا. أما الولايات المتحدة ومعها بريطانيا فتتبنيان أسلوب الحل السياسى، الذى يتمثل فى الضغط على إيان سميث رئيس الحكومة البيضاء فى روديسيا، لإجباره على التخلى عن الحكم لصالح الأغلبية الأفريقية، وعلى حكومة جنوب أفريقيا لإنهاء احتلالها غير المشروع لإقليم ناميبيا.

●● والسؤال الآن هو:

أى من الأسلوبين سيكتب له النجاح؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضى أن نحاول التعرف على رأى الأفارقة أنفسهم. وربما يبدو لا يمانع الأفريقيون فى التعاون مع أى من الطرفين، إذا كان ذلك سيؤدى إلى حصولهم على حقوقهم، وعلى كل حال هناك ما يؤكد أن حركات التحرير الأفريقية فى كل من زيمبابوى (روديسيا) وناميبيا، ودول المواجهة الأفريقية، تسعى فى نفس الوقت للحصول على أقصى دعم عسكرى ممكن من السوفيت، وعلى أقصى دعم سياسى ممكن من الغرب.

ورغم أن الضغط الغربى على النظامين العنصريين فى روديسيا وجنوب أفريقيا لا يزال غير فعال، فإن هناك الخوف من تحول نصف أفريقيا الجنوبى بأكمله إلى منطقة نفوذ سوفيتية إذا تغلب فى النهاية أسلوب الحل العسكرى، وهذا الخوف وحده كفيل بحسم تردد الغرب فى الضغط على كل من سالزبورى وبريتوريا.

وفى هذا الموقف من جانب الأفارقة، ما يدفعنا إلى أن نقول باطمئنان إن الشعوب الافريقية - رغم أن عوامل خارجة عن إرادتها جعلت من أفريقيا حلبة للصراع الدولى - نرى أن صالحها ينتضى البقاء خارج نطاق الاستقطاب ومناطق النفوذ وخصوصا أن هذه الشعوب تدرك جيدا أن الدول الكبرى لا تتطلع للقرة لتضعها فى سلة غيرها، وأن الأفارقة أمامهم طريق طويل.. طويل للخروج من دائرة النفر والتخلف.

●● فهل ينجح مؤتمر القمة الأفريقى القادم فى جابون فى تحقيق هذه الأمنية؟ هذا ما نوده، وهذا ما ستجيب عليه الأيام.

●

رسالة عمان

هل نحن أمة خائفة؟

● نحن جيل خائف نتنوع من العمل. لانه يعيش وسط دوائر من الرعب والتسلط الاجتماعى. وأول هذه الدوائر تبدأ نقطة فى الأسرة يكون مركزها الطفولة. فالأب يخاف على ولده فيخيفه! وخوف الأم يبعث الخوف فى الابن.. ثم تتسع دائرة الخوف.. فالطالب (يجب) أن يخاف من المعلم.. والمعلم من المدير.. والمدير من المفتش.. الخ...

وأما فى الحياة فيبدأ الخوف بالتظاهر اشكالا والوانا من النفاق الاجتماعى! الخوف من الجوع.. والخوف من الفقر.. والخوف من الإهانة.. كل انسان يخيف آخر.. ويخاف من آخر! فاذا بالمجتمع عقدة خوف!

واما اللحظات التى يعتبرها الناس شجاعة فأغلب الاحيان تكون ردود فعل لعقدة الخوف، فالخائف أسرع فى هربه من غيره.. وأحكم فى ضربته من سواه!

ولئن كانت الحمر ام الكبائر.. فإن الخوف هو أبو الكبائر.. فالخوف يمنع العمل.. وهذا هو الموت بعينه..

لماذا نخاف؟! لأننا نكره الصدق.. فنخاف الحقيقة!

وإذا جاز لى أن أصف العلاج.. فلن تكون وصفتى (حبوب الشجاعة)! وإنما (الحبة) عن (حبوب الخوف)..

والعودة إلى جذورنا الحضارية، ان وجدت، فى تعاملنا مع الحياة!

وإذا كان لا بد من خوف! فليكن خوفا من الخوف!

... لا.. فلسنا أمة خائفة.. وإن كنا جيلا خائفا!! ورغم ذلك فقد تخللت حياته فترات صحو عبر فيها التاريخ!!

● وقبل أن تتهمنى أيها القارىء العزيز بالشجاعة فأنا لا أبرىء نفسى من الخوف!

ا. س